

## عفرين مقابل إدلب جولة في المواقف الإقليمية والدولية

2018-01-25 عريب الرنتاوي

تزامنت عملية "غصن الزيتون" التركية في عمق الأراضي السورية، في منطقة "عفرين"، مع تقدم شارف ضفاف "الاختراق" للجيش السوري وحلفائه، على محور إدلب، توجّ باستعادة دمشق سيطرتها على مطار "أبو الظهور" الاستراتيجي... ما أثار انطباعاً، بأن "وراء الأكمة ما وراءها"، واستدعى المزيد من التحليلات والتكهنات، حول ما إذا كانت العمليتان منسقتان، وفي إطار صفقة إقليمية، برعاية روسية، يمكن أن نعطيها اسماً مختصراً "عفرين مقابل إدلب".

مصدر الشكوك والتساؤلات التي أحاطت بالعمليتين التركية في عفرين والسورية في إدلب، يعود إلى صمت روسيا، صديقة الأكراد والأترك على حد سواء، عن العملية التركية، وتفاديها توجيه انتقادات حادة لأنقرة، واكتفائها بالدعوة لـ "ضبط النفس"، والتأكيد على أن الاتصالات ما زالت مستمرة مع مختلف الأطراف... هذا الموقف "المائع" إن جاز التعبير، أثار لغطاً وشكوكاً حول وجود "الصفقة" المشار إليها.

أما دمشق، التي تعهد نائب وزير خارجيتها، الديبلوماسي المخضرم فيصل مقداد، بالتصدي لـ "العدوان التركي" ملوحاً بامتلاك بلاده لمنظومة مضادة للطائرات، قادرة على تحييد سلاح الجو التركي، فلم يصدر عنها سوى التنديد والوعيد... التنديد بالانتهاك التركي للسيادة السورية، والوعيد بأنه مهما طال الزمن، فإن الجيش السوري سيسترجع آخر شبر من تراب سوريا الوطني، ويفرض سيادة الدولة السورية عليها، شاء من شاء وأبى من أبى... العملية تدخل يومها الخامس، وسلاح الجو التركي لا يغيب عن الأجواء عن الأجواء السورية، من دون أن تطلق رصاصة واحدة من جانب دمشق وحلفائها.

إيران بدورها، لم تنبس ببنت شفة، وبدا كما لو أنها تكتفي بمراقبة تداعيات المشهد، فهي من جهة، مع كل عمل من شأنه تقويض أحلام أكراد المنطقة القومية والانفصالية، مخافة أن تنتقل شرارات العدوى إلى الداخل الإيراني، وهي من جهة ثانية، ترتبط مع روسيا وتركيا، بالتزامات وتفاهمات في

سياق مساري أستانا - سوتشي، وهي من جهة ثالثة، ترتبط بتركيا بعلاقات ثنائية اقتصادية واستراتيجية وثيقة، وهي بحاجة لإدامة هذه العلاقات وتطويرها كذلك، سيما مع تصاعد حدة العدائية الأمريكية لها، وتلويح البيت الأبيض والكونغرس بفرض عقوبات جديدة على إيران، بعد انتهاء "التمديد الأخير" لرفع العقوبات الذي وقعته ترامب قبل أسابيع قلائل.

لكن الناطقين باسم حزب الله، وهو لاعب "لا دولاتي" بالغ التأثير في المنطقة، لا يترددون عن البوح بأن ما يجري شمال سوريا، ليس سوى صراع في قلب دائرة الخصوم والأعداء، ومن غير المناسب أن نقف مع فريق ضد آخر، أو نستنفر لوقف الاقتتال بين طرفيه، الأول المدعوم من الولايات المتحدة، والثاني المدعوم من تركيا، و"بتورط" نشط لجيشها وقواتها المسلحة.

في المقابل، تؤكد تركيا أن العملية وقعت بالتنسيق مع روسيا، وأنها استحصلت على ضوء أخضر من الكرملين، وأنها أبلغت طهران بمراميها، وأعلمت دمشق خطأً بها، على الرغم من نفي دمشق المتكرر لهذه المعلومة... تركيا تؤكد أنها ستفرض بالقوة نهاية من تسميها بالجماعات الإرهابية، وأنها ستقيم حزاماً أمنياً بعمق ثلاثين كيلومتراً داخل الأراضي السورية، وأنها في الوقت ذاته، ستظل داعمة لمساري أستانا - سوتشي ومسار جنيف، بهدف الوصول إلى حل سياسي للأزمة السورية، الذي تشير كافة الدلائل من وجهة نظر أنقرة، أنه سيلحظ حقوق أكراد سوريا، ولكن من ضمن سوريا واحدة وموحدة.

موسكو، الحاضرة بقوة في قلب المشهد السوري، تميل للابتعاد رسمياً عن السجال المندلج بين الأفرقاء، لكن أكثر ما يهم موسكو في هذه المرحلة، هو تثبيت دعائم السلطة المركزية في دمشق، من جهة، وهنا يمكن فهم المقايضة وفق معادلة "عفرين مقابل إدلب"، ويهيمها أيضاً وبالقدر نفسه، نجاح مسار أستانا - سوتشي، إلى جانب مسار جنيف، ولا بأس إن كان على حسابه، وتركيا لاعب مهم في المسارين، وهي تعهدت لموسكو بتسليك الطرق المؤدية إلى سوتشي، وبمشاركة واسعة ما أمكن، بمن في ذلك ممثلين عن الأكراد، ممن ليس لهم علاقات مباشرة بحزب "بي كا كا"... روسيا تسدد لتركيا (غصن الزيتون) بعض فواتير الشراكة التركية - الروسية، وللمرة الثانية، بعد "درع الفرات".

الولايات المتحدة وبعد أيام من إعلان وزير خارجيتها ريك تيلرسون، عن استراتيجية بلاده الجديدة في سوريا، وجدت نفسها أمام "مأزق" احتراب حلفائها، فلا هي من جهة قادرة على التخلي عن أكراد سوريا، وهم الحليف الوحيد المتبقي لها على الأرض، ولا هي بوارد التفريط بعلاقاتها مع دولة بوزن تركيا وحجمها، عضو في "الناتو" وحاضنة واحدة من أكبر قواعدها العسكرية في المنطقة: أنجريك.

أطلقت واشنطن "موسم حجيج" صوب أنقرة، مسؤولون من مختلف المؤسسات وعلى ارفع المستويات، واتصالات ربما على مدار الساعة، وسرعان ما تخلت واشنطن عن تحفظاتها حيال مشروع "المنطقة الآمنة" الذي تقدمت بها تركيا قبل أزيد من ثلاث سنوات، وباتت مستعدة لبحث الموضوع والأخذ به، وفجأة بدت واشنطن أكثر تفهماً لمخاوف أنقرة واحتياجاتها الأمنية، لكن يمكن القول أن "التطور" في الموقف الأمريكي من الجولة الأخيرة من النزاع في سوريا وعليها، جاء متأخراً، تماماً مثلما جاءت الاستراتيجية الجديدة لسوريا، بعد "خراب البصرة"، مفخخةً وتحمل في طياتها عناصر فشلها.

أما الأكراد، أنفسهم، أصحاب المشكلة والطرف الرئيس فيها، أقله على الأرض، فقد بدا واضحاً أنهم سيدفعون مرة أخرى، ثمة "خذلان" الأصدقاء والحلفاء، لكأن القوم لا يتعلمون من دروس الماضي القريب والبعيد، وآخرها ما حصل قبل بضعة أشهر، من خذلان وتخلٍ عن أشقائهم في العراق إثر الاستفتاء/المقامرة، التي أقدم عليها مسعود البرزاني... لقد ذهب كرد سوريا بعيداً في طموحاتهم، بصرف النظر عن عدالتها أو "عدم شرعيتها"، بل وأظهروا كما أشقائهم العراقيين، نهماً للتوسع، وأداروا ظهورهم للاعبين الإقليميين في المنطقة ظناً منهم أن ظهرهم محمي بالمارينز والقواعد الأمريكية... والأرجح أنهم سيلدغون من الجحر ذاته مرة أخرى، والأرجح أنهم سيكونون الضحية التالية لـ "لعبة الأمم".

لقد مدت دمشق يدها لهم، وعرض وليد المعلم حواراً حول الطموحات المشروعة لكرد سوريا، طالما ظلت في إطار سوريا الواحدة الموحدة، ولكن من دون جدوى... لقد أخفقوا في بناء علاقة متوازنة مع المعارضة السورية على اختلافها، إذ حتى التيارات الأكثر تفهماً وقبولاً بحقهم في تقرير المصير، مثل هيثم مناع وتيار "قمح" لم يحتمل البقاء في تحالف مع الحركة الكردية... وإذ أظهروا شهية مفتوحة لضم مناطق عربية صرفة (الرقّة) إلى إقليمهم وإدارتهم، فقد قاموا بفقدان

دعم عشائر عربية وازنة، كانت تقاتل معهم جنباً إلى جنب وكتفياً إلى كتف، إلى أن حدث التطور الأخير، وانشقت فصائل مسلحة وازنة من أبناء هذه العشائر، والتحقت بصفوف القوات المدعومة من تركيا، لتقاتل الأكراد، أعداء اليوم، وحلفاء الأمس.

المشهد في شمال سوريا المعقد أصلاً، يزداد تعقيداً، ولا أحسب أن ثمة رابحاً في هذا الفصل الجديد من الحروب المتناسلة في سوريا وعليها... لكن المؤكد أن الخسارة الكبرى في هذه المواجهة، ستكون من نصيب الأكراد... أنقرة سيكون لها منطقتها الآمنة، ودمشق ستستعيد إدلب، وإيران ستكون قد لقنت أكرادها درساً قاسياً، من دون أن تبذل أي جهد، أو أن تدفع قرشاً أو تريق قطرة دم واحدة، واشنطن ستقاتل حتى آخر كردي، وموسكو ستغذ الخطى صوب سوتشي، وبمشاركة من أكبر حليفين إقليميين في المنطقة: تركيا وإيران.

ونقول أن ليس ثمة رابحاً في هذه الحرب، لأن هزيمة أكراد سوريا، لا تعني نهاية "المسألة الكردية" لا على المستوى الإقليمي، ولا على المستوى القومي الخاص بكل دولة من دول الانتشار الكردي الأربع... وسيتعين على حكومات هذه الدول، وأي إطار إقليمي قد ينشأ من رحم الفوضى والخراب العميمين في المنطقة، أن يبحث عن حلول سياسية منصفة للأمة الكردية، فهذه المنطقة، سكنتها تاريخياً وتقاسمت إرثها الحضاري، العمراني والثقافي، أربعة أمم: العرب، الترك، الفرس والكرد، وأي إسقاط لأي منها أو تهميش، أي استبعاد أو استعباد، لن يفضي إلا إلى تهيئة التربة لجولات لاحقة من الحروب المتناسلة، وليس في ذلك مصلحة إلا لإسرائيل والقوى الكولونيالية، القديمة منها والجديدة.

.....

\* الآراء الواردة لا تعبر بالضرورة عن رأي شبكة النبأ المعلوماتية